

(١٦)

مشورة امرأة أنقذت الصحابة!

ساق رسول الله ﷺ ، من الهدي في عمرة الحديبية سبعين بدنةً ، وساق عدد من أصحابه هدياً ، منهم عثمان ابن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وطلحة بن عبيد الله ﷺ . وكان الذين لا هدي معهم هم الأكثرون من الصحابة . فلما انتهى أمر كتابة الوثيقة بين المسلمين والمشركين ، قال رسول الله ﷺ لأصحابه : « قوموا فانحروا ثم احلقوا » . فلم يقم منهم أحد ، فقالها لهم مرة ثانية ، ثم مرة ثالثة ، يقول رواية السيرة : « فوالله ما قام من أصحابه أحد » !

فشق ذلك على النبي ﷺ ، واشتد عليه ، فدخل خباءه وفيه أم سلمة رضي الله عنها ، فعرفت الغضب في وجهه ، فسألته عن الأمر ، فقال لها : « هلك المسلمون ، أمرتهم أن ينحروا ويحلقوا فلم يفعلوا » وفي رواية : « يوشك أن تنزل على هؤلاء حجارة من السماء... » وفي رواية ثالثة : « ألا ترين إلى الناس أمرهم بالأمر فلا يفعلونه ، وهم يسمعون كلامي وينظرون وجهي » ؟!

قالت أم سلمة : « يا رسول الله لا تَلْمَهُمْ ! فإنهم قد دخلهم أمر عظيم مما أدخلت على نفسك من المشقة في أمر الصلح ، وبرجوعهم بغير فتح (أي دون أن يدخلوا مكة ويعتصروا). يا نبي الله ، اخرج ولا تكلم منهم أحداً كلمة ، حتى تنحر بُدْنُكَ وتدعو حالقك فيحلقك » ^(١) فجلّى الله تعالى عن الناس بأم سلمة كما يقول الرواة .

خرج رسول الله ﷺ ، بعد نصيحة أم سلمة ، التي طيبت خاطره على أصحابه ، والتمست لهم العذر ، ودلته على سبيل يضمن له أن ينفذوا ما أمرهم به ؛ خرج إلى بدنه فأهوى إلى واحدة منها مكبراً « باسم الله والله أكبر » ونحرها. فتواثب المسلمون إلى الهدْي ينحرونه حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً ، لتسارعهم إلى نحر الهدْي بعد أن رأوا رسول الله ينحر هديه !

وكان في الهدْي جمل أبي جهل الذي غنمه المسلمون يوم بدر ، وكان نجيباً (جيداً) مهرياً (نسبة إلى قبيلة من قضاة أو بلدة بعمّان كلاهما تسمّى مهرة) فشرّد من المسلمين وتوجه تلقاء مكة ولم يقف حتى بلغ دار أبي جهل ،

(١) من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم، سبق تخريجه .

وخرج يطلبه عمرو بن عَمَّة بن عدي الأنصاري^(١) ، فأبى سفهاء مكة أن يعطوه إياه ، فتدخل سهيل بن عمرو فأمرهم برده فردوه . ودفع بعض أهل مكة فيه عدة نياق (أرادوا شراءه من المسلمين) فقال لهم رسول الله ﷺ « لولا أنا سميناه في الهدي (أي جعلناه منه) فعلنا » ونحره ﷺ عن سبعة . قال أصحاب السير : « كان النبي قد أهدها ليعيظ بذلك المشركين ! » وكانت خيام رسول الله ﷺ مضروبة في الجزء من أرض الحديبية الذي يخرج عن الحرم ، فإذا أراد الصلاة دخل الجزء الذي هو من الحرم فصلى ثم عاد إلى خيامه ، وبعث عند نحر الهدي بعشرين بدنة لتنحر في الحرم عند المروة ، ثم دخل قبة له من جلد ودعا بخراش بن أمية بن الفضل الكعبي فحلق له رأسه ، ورمى شعره فوق شجرة كانت إلى جنبه ، فجعل الناس يقتسمونه كل يريد منه نصيباً ، فكان ممن أخذ منه أم عمارة الأنصارية ، فكانت - بعد - تضعه في الماء وتسقي منه المريض فيبرأ !^(٢)

(١) ترجمته في ابن الأثير، أسد الغابة برقم ٣٩٢٢ ، وفي الإصابة لابن حجر برقم ٥٩٢٥ وفيهما أنه من البكائين الذي نزل فيهم قول الله تعالى : ﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴾ (التوبة: ٩٢) .
(٢) الصاخي ، السابق ، ص ٩٣ .

وجعل الصحابة يتسابقون إلى الحلق وقد أخذهم غمٌ عظيم لما تأخروا عن تنفيذ أمر رسول الله ﷺ ، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً لشدة تعجلهم في الحلق لئلا يسبقهم رسول الله ﷺ ، ولحرصهم على المبادرة إلى تنفيذ أمره .

وحلق بعض المسلمين ، وقصّر بعضهم ، فأخرج رسول الله رأسه من قبته وقال : « اللهم ارحم المحلقين » ، قيل يا رسول الله والمقصرين ، قال : « اللهم ارحم المحلقين » حتى قالها ثلاثاً ، ثم قال : « والمقصرين »^(١) .

ولولا نصيحة أم سلمة لأصاب من تباطؤوا في تنفيذ أمر رسول الله ﷺ ما لا يعلمه إلا الله . ولكن مشورتها أنقذت أمة الإسلام « يومئذ » مما سماه النبي ﷺ ، « هلاكاً » ، وفي ذلك من الدليل على جواز مشاورة المرأة في الأمور العامة ، مما يقطع حجة القائلين : إنها تشاور في شؤونها الخاصة فحسب . وفيه دليل على فضل أم سلمة ووفور عقلها ، وكمال نفسها ، وفهمها ما كان يجول بنفوس أصحاب النبي ﷺ ، حتى طيبت بذلك نفسه ولم توغر على أصحابه صدره !

(١) الصالحى، ص ٩٤ ؛ وفتح الباري، ج ٥ ص ٣٤٧-٣٤٨ ؛ وفيه أن بعض الصحابة قالوا : يا رسول الله لما ظهرت للمحلقين دون المقصرين ؟ قال لأنهم لم يشكوا .

ولا يلتفتن عاقل إلى قول من قال « لم تصب امرأة في مشورة إلا أم سلمة ، وبنت شبيب ! ^(١) » فإن هذا من تضيق رحمة الله وفضله ، الذي يؤتية مَنْ يشاء من الرجال والنساء ، وهو ظلم للمرأة لا يليق بأهل العلم ولا ذوي الرأي أن يقعوا فيه .

* * *

(١) انظر كتابنا : الإسلاميون والمرأة، دار الوفاء، ٢٠٠٠، (المرأة وممارسة العمل السياسي)، ص ٢٦ وما بعدها؛ ومحمد هيثم الخياط، المرأة المسلمة وقضايا العصر، دار سفير الدولية للنشر، القاهرة ٢٠٠٧، ص ١٦ وما بعدها .